أفق قراءة جديدة لرواية "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ

أ. مسعودي العلمي
جامعة ورقلة

الملخص

لقد اقتضى فهم النص " أولاد حارتنا" من زاوية الأفق الراهن، العودة إلى تاريخ تلقيه قصد الإحاطة بالآفاق التاريخية التي أجيب فيها عن أسئلة القراء الأوائل والقراء اللاحقين. الآن وقد انتهينا من إعادة كتابة هذا التاريخ ،سننتقل إلى مساءلة ذلك النص في ضوء أفق جديد نسبيا . ولن تكون قراءتنا نموذجا بديلا ووحيدا وإنما سنقوم بانتقاء أحد التحققات الممكنة للقارئ الضمني أو النموذجي في رواية " أولاد حارتنا" .

وقد ارتأينا أن نقسم هذه القراءة إلى نمطين هما : القراءة السميوزية أو ما قبل نصية prétextuelle أو النشيطة المنشطة على حد تعبير د. محمد خرماش 1.وهي القراءة التي تقوم بتنشيط- النص عن طريق إعمال النظر واستدعاء القدرات الموسوعية لملء تمظهراته المعجمية والسننية . ثم القراءة النقدية السيميائية أو النصية التي تقوم بتسييج السيميوزية ولجم نشاطها بواسطة انتقاء بنيات خطابية وسردية وعاملية وإيديولوجية .

المحور الأول : قراءة سيميوزية :

ثمة تعابير معجمية وسننية في نص " أولاد حارتنا " ، وقد نتجت عن فعل انتقائي لأنساق دينية وأسطورية وتاريخية وثقافية وأدبية ...إلخ. ولذلك فهي تعابير تنطوي على دعوة موجهة إلى قارئ نموذجي قادر على فك مغاليقها وملء فراغاتها واستكمال ماسكتت عنه. وهذا يعني إعادة بناء موسوعة رواية " أولاد حارتنا" بالكشف عن أبعادها الدلالية المحتملة.

1-1- التمظهرات المعجمية وأحوال التلفظ :

نجد في نص " أولاد حارتنا" مجموعة من اللكسيمات التي تتكون من الشخصيات والأمكنة والتصورات (أو المفاهيم) الحاملة لخصائص دلالية لا متناهية.

أ- الشخصيات : التي تتضمن ما يلي : الجبلاوي ،أدهم، أميمة ، إدريس ، قدري ، همام، جبل ، رفاعة ، قاسم ،عرفة، عواطف،حنش، عبدة ،قمر ، بدرية، هند ،تمرحنة،رفعت،إيهاب ...إلخ.ويمكن إدراجها ضمن لكسيمين مركزيين هما : الرجل والمرأة لذلك نستطيع تحديد خصائصها الدلالية على الشكل التالي:

- الجبلاوي ، أدهم ،إدريس ،قدري ،همام ،جبل ،رفاعة ،قاسم ،عرفة، حنش ،زقلط، إيهاب...= رجل+كائن إنساني +جنس خشن ،....الخ.وتتمثل الامتدادات النصية لهذا اللكسيم في كل الأفعال التي أنجزتها تلك الشخصيات، مثل الخداع (إدريس) والقتل(قدري) والقوة (جبل)، والصفع والركل (الفتوات)...إلخ.أما امتداداته الموسوعية فتتجلى في ما يمكن أن يحيل على دور الرجل عبر التاريخ مثل:

• "الرجل سابق في الوجود على المرأة سباق آدم حواء"،"أصل الأسرة بطريريكي..."،"الرجال قوامون على النساء..."، مساهمة الرجل في الاكتشافات العلمية ،الأنبياء والرسل.

- أميمة ،عبدة ،عواطف ،بريهة...إلخ= امرأة+كائن إنساني جنس لطيف+رقيق ،...الخ، وتتمثل امتداداتها النصية فيما يلي :

• الخطيئة والخيانة(أميمة، ياسمينة) ، العطف(هدى، قمر) ، النضال (تمرحنة، عواطف)...إلخ.

• "النساء نصف كيان حارتنا" من عجب أن حارتنا لا تحترم النساء "2.

أما امتداداتها الموسوعية فتتجسد في ما يمكن أن يحيل على طبيعة المرأة ودورها عبر التاريخ مثل :

• سبب وجود البشرية على وجه الأرض من خلال انتهاك حواء للمحرم"

• "رسول الشيطان وسهمه"و" إن كيدهن عظيم"و"الجنة تحت أقدام الأمهات ".

• الأم مدرسة إذا أعددتها * أعددت شعبا طيب الأعراق

• نساء ساهمن في تغيير وجه التاريخ مثل : بلقيس ملكة سبأ، كيليوبترا السابعة ملكة مصر، السيدة مريم العذراء البتول ، زنوبيا ملكة تدمر، خديجة بنت خويلد ، عائشة بنت أبي بكر3.

• نساء ساهمن في النضال من أجل المساواة بين الجنسين : جورج صاند George sand، فيرجينيا وولف Verginia Woolf ، كات ميليت Kate Millett، كلوريا ستينم Gloria Steinem، سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir4، نوال السعداوي ، ليلى بعلبكي ، فاطمة لمرنيسي ...الخ.

ب –الأمكنة : التي تتضمن ما يلي :البيت الكبير ،مصر،الحارة، صخرة هند، الخلاء، البدروم، حي جبل، حي رفاعة، حي الجرابيع ...إلخ .

- البيت الكبير : مكان فسيح الأرجاء + محاط بأسوار كبيرة وحدائق واسعة+ به عائلات كثيرة + زوجات متعددة ...الخ. وتتمثل امتداداته النصية فيما يلي :

• " شيده الجبلاوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق"5.

• كان سوره الكبير العالي يتحلق مساحة واسعة"6

• " فما عسى أن يفعل الجبلاوي بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قوته"7.

أما امتداداته الموسوعية فتتمثل فما يلي : أسرة ، مجتمع ، فردوس أو جنة ...الخ .

- الحارة هي فضاء ضيق + حي شعبي...الخ، وتتجلى امتداداتها النصية فيما يلي :

• " حارتنا العجيبة ذات الأحياء العجيبة "8.

• مأوى البلطجية والمتسولين "9.

• متى تكف حارتنا عن كف الحكايات "10.

ومن امتداداتها الموسوعية نذكر: مجتمع مصغر أو حي شعبي ذو تقاليد قائمة على القرابة والتعاون، مجتمع كبير أو بلد له تقاليد قائمة على القرابة والتعاون، مجتمع كبير أو بلد له تقاليد مشتركة مثل اللغة والتاريخ والثقافة والدين ...الخ.

- مصر : بلد+عربي +مسيحي+(الأقباط)+إفريقي +بلد من بلدان العالم الثالث...الخ.

ومن امتداداته النصية نذكر ما يلي :

• " هو أصل الحارة ، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا ...الخ 11.

• " العطوف "،" سوق المقطم"،"كفر الزغاري"،"الحسينية "...الخ12

أما امتداداته الموسوعية فمنها ما يلي :

• أرض الكنانة ،" مصر أصل الحضارة " كأطروحة وطنية فرعونية دافع عنها مثقفون وأدباء مصريون مابين العشرينات والأربيعنيات من القرن العشرين ، ومنهم: توفيق الحكيم ،طه حسين ،محمد منذور ثم سلامة موسى صاحب كتاب بعنوان :

" مصر أصل الحضارة". وتعني هذه الأطروحة أن مصر هي مهد الحضارة الإنسانية والديانات الروحية الكبرى، وهي كذلك جنة الدنيا وأصل الكون، وهي علاوة على كل هذا الأرض التي وطئتها قدم الإنسان لأول مرة والتي ضمت أقدم كنيسة في العالم ...الخ13.

ج- التصورات أو المفاهيم : التي تتضمن العناصر التالية: الوقف، الشروط العشرة،الحجة، الكتاب السري، الحكايات،السحر، الفتونة...الخ.وسنقتصر على تحيين لكسيمين هما : الوقف والشروط العشرة.

-الوقف : عمل خيري + متاع + أحباس + أرزاق ...الخ . وتتمثل امتداداته النصية فيما يلي :

•"سيكون الوقف لذريتك"14،

• "الأموال"،"الميراث"،"العمران"15،"بيوت الوقف16.

أما امتداداته الموسوعية فتتمثل فيما يلي :

•العقارات المنقولة وغير المنقولة على الجهات التالية: مساجد ، تكايا ، زوايا ، مدارس، كتاتيب، مقابر، مزارات...الخ.

- وجود أوقاف ، عبر التاريخ الإسلامي ، لإطعام الدولب الضالة والطيور ، وأوقاف لإيواء الغرباء وإطعام المساكين والمنقطعين للعبادة. وكان النظار هم الذين يتولون إدارتها .

- الشروط العشرة :أوامر + نواهي +أحكام + مواعظ...الخ. وتتمثل امتداداتها النصية فيما يلي:

- "وصايا الواقف"،"صاحب الأوقاف"17 * "شروط الواقف18.

أما امتداداتها الموسوعية فتتمثل في ما يلي :

- الوصايا العشر المذكورة في سفر من أسفار التوراة هو سفر التكوين ،ومنها:"لا تشته بيت قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك"19.

- الوصايا العشر المذكورة في القرآن الكريم ، وهي:

((قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)))20.

هكذا فتحيين الوحدات المعجمية السالفة الذكر يخضع لقواعد قاموسية لسانية وأخرى موسوعية . فالقواعد القاموسية تضع اللكسيمات في سياقات لسانية ونصية. أما القواعد الموسوعية فتضعها في سياقات خارج – نصية باعتبارها سياقات تتيح لها الامتدادات في نصوص تاريخية ودينية وأدبية،أو في تعابير أسطورية وشعبية ...الخ. على أن ملء التمظهر الخطي المعجمي للنص يرتبط ارتباط مباشرا بإعادة بناء أحوال تلفظه ،على اعتبار ان الشروع في الكتابة وانتقاء الشخصيات والأمكنة والتصورات ...الخ،عملان لا ينفصلان انفصالا تاما عن المحيط الاجتماعي واللغوي والأدبي الذي انبثقت منه رواية "أولاد حارتنا".

من هذه الزاوية فإن إعادة ربط نص " أولاد حارتنا " بهذا المحيط، من شأنه أن يساهم في تفعيل السيميوزيس وإلقاء النص من جديد في أحضان الكتاب الذي تلفظ به والعصر الذي ظهر فيه واللغة التي استخدمها .وعليه هناك شخص تلفظ بنص " أولاد حارتنا " هو نجيب محفوظ وكتبه بلغة رمزية لأمرين : الأول له علاقة بطبيعة العصر أو الفترة التي ظهر فيها وتتمثل في وصول جمال عبد الناصر إلى السلطة بإحداث ثورة الضباط الأحرار في 23 يوليوز 1952 ، ثم في المسار الذي سلكته هذه الثورة في تطبيق

شعاراتها. أما الثاني فله علاقة بالتحولات الفنية التي عرفتها الرواية العربية في الخمسينات(مصر على الأقل) والتي تندرج في إطار موجة الرواية الجديدة. بمعنى آخر لقد لجأ نجيب محفوظ إلى ماسماه "أدب كرنفالي" باعتباره أدبا "يلمح أكثر مما يصرح، يغمز ويلمز ويحاول أن يبصر بالسلبيات، ومنذ "أولاد حارتنا " وحنا لابيسن كرنفال، نحاور ونداور في الرقيب ومقصه أقوى من كل تنكر"21. ولهذا فرواية " أولاد حارتنا "ظهرت في لحظة تاريخية صادفت فيها ثورة يوليو عراقيل كبيرة ، وهذا ما صرح به نجيب محفوظ بنفسه قائلا :"بدأت أشعر بأن تناقضات كثيرة تهز نفسي وخاصة من خلال الارهاب والتعذيب والسجن، ومن هنا بدأت كتابة أولاد حارتنا "22.

من خلال هذا كله يمكن أن نتساءل هذا السؤال : إلى أي حد كانت الثورة الناصرية هي المستهدفة وحدها في الرواية ؟ وهذا ما سنتعرف على جوابه في القراءة الثانية ، لأننا الآن لا نملك إلا أن ننشط النص ونحركه، وقد قمنا بتحيين تمظهراته المعجمية ، والآن نتنتقل إلى تحيين تمظهراته الأسلوبية والبلاغية (السننية).

1-2- التمظهرات السننية :

لقد لجأ نجيب محفوظ في روايته إلى ضع تعابير أسلوبية بلاغية مفرطة في التسنين Hypercodage، حتى يثير المتلقي ويستدرجه إلى المشاركة في العملية الإبداعية وإنتاج المعنى .فإذا رجعنا على سبيل المثال إلى الافتتاحية التي صدرت بها الرواية نجد هذين التعبيرين الأسلوبيين:

- " هذه حكاية حارتنا أو حكايات حارتنا وهو الأصدق، لم أشهد من واقعها إلا الطور الأخير الذي عاصرته ،ولكني سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم ، جميع أبنائنا يرون هذه الحكايات، يرويها كل كما يسمعها في قهوة حية وكما نقلت إليه جميع الأجيال ...23.

- " شهدت العهد الأخير من حياة حارتنا وعاصرت الأحداث التي دفع بها إلى الوجود عرفة ابن حارتنا البار 24.

من هذا المنطلق يمكن القول بأن التعبير الأول ينطوي على صيغة حكائية تذكرنا بالصيغ التي يزخر بها التراث السردي القديم مثل : ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة ، السيرة الشعبية ..الخ، ومنها: زعموا ،يحكى ،يروى ،يقال،قيل...الخ .ولهذا وظف الكاتب صيغة " هذه حكاية حارتنا" لكي يثير القارئ ويدفعه إلى الشروع في القراءة ، ومن ثم ولوج عالم النص والتعرف إلى الحكايات التي رويت في زمن مضى والتي سجلها الراوي بإعادة روايتها والكاتب بإعادة كتابتها . وهذه الحكايات تنطوي في الرواية على ثورات خاضها أولاد الحارة ضد الاستغلال والاستبداد.

أما في ما يخص التعبير الثاني ، فيمكن القول بأن الكاتب أراد ، على لسان الراوي، أن يلفت نظر القارئ إلى أنه بصدد رواية حكايات عاصرها هو بنفسه، وهي تختلف عن الحكايات القديمة التي كانت ترويها مختلف الأجيال ويتناقلها شعراء الرباب، ومنها حكايات العهود الغابرة . وإذا كانت هذه الأخيرة قد رويت على شكل بطولات ورددتها أجيال مختلفة، فإن الحكايات التي رواها الكاتب أو على الأصح كتبها، لم يشترك معه أحد في ترديدها، وتتمثل في رواية"أولاد حارتنا" نفسها.

إن اختيار هذين التعبيرين إذن ليس اختيارا اعتباطيا ، كما أن إعادة صياغة تلك الحكايات على امتداد المساحة التخييلية للنص، ليست صياغة تقريرية ولهذا ليس من العجب أن يلجأ الكاتب إلى لف مجموع رواية "أولاد حارتنا" بالفراغات والرموز التي تتطلب من القارئ إعمال النظر من أجل ملئها.وما دامت رواية " أولاد حارتنا" مغرقة في التمييز ، فإن قراءتها ستكون مغرقة في التأويل عن طريق السيميوزيس .وتتخلل تلك الفراغات والرموز أسماء الشخصيات والفضاءات التخييلية التي تتحرك فيها. ومن هذه الأسماء نذكر :الجبلاوي ، أدهم أميمة ، إدريس ، قدري ، همام، جبل، رفاعة،قاسم ، عرفة،والفتوات والنظار.

- الجبلاوي: لقد وصف الجبلاوي في الرواية بالصفات التالية:

- "عمر فوق مايطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره "25.
- يبدوا بطوله وعرضه خلقا فوق الآدميين كانما من كوكب هبط"26.
- شيئا خارقا"27.

من هنا نستطيع اعتبار شخصية أصطورية نظرا للطابع الميتافيزيقي للصفات المسندة إليه في الرواية .ثم وصف كذلك بالصفات التالية :

- قادر على معرفة كل شيئ 28 " يستطيع أن يطلع على على كل صغيرة وكبيرة 29".
- جبر في الخلاء "30. " وكان بالضعفاء رحيما"31.
- شخص ليس كمثله أحد في حارتنا ولا في الناس جميعا، طويلا عريضا كانه جبل "32.

الهوامش:

- ينظر : د.محمد خرماش ، فعل القراءة وإشكالية التلقي ، مجلة علامات ، عدد 10،1998،ص.54.

2 نجيب محفوظ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، مجلد 6، دار الآداب،بيروت (توجد في كلية الآداب ظهر المهراز فاس) ص.619.

[3] - ينظر د.حسين الشيخ ، نساء غيرن وجه التاريخ ،دار العلوم العربية، بيروت لبنان ،ط 1.1996.ص 41 -51-69-.81-119-.137.

[4] Rebert Laffont , la libération des femmes , une production realisé" sous la direction de Henri – Tissot, Ed.Grammond , Paris, Barcelone, 1975,p.9,p.61,p.68.,p.74

[5] نجيب محفوظ ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص. 327.

[6] نفسه ص.327.

[7] نفسه ص 727.

[8] نجيب محفوظ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة ،ص 327.

[9] نفسه ص732.

[10] نفسه ص700.

[11] نفسه ص .325.

12نفسه ص.326

13ينظر: ألبرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة : كريم عزقول ، ط.4. دار النهضة للنشر ،بيروت، 1986، ص.68-73-249.

14نجيب محفوظ ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص. 413.

15نفسه ص.414.

16نفسه ،ص.414-415.

17نجيب محفوظ ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص.326.

18نفسه ص.332.

19ينظر : بو علي باسمين ،الثالوث المحرم ،دراسة في الدين والجنس والصراع الطبقي،دار الطليعة،بيروت،ط.4.سنة 1980 ،ص.44.

20 سورة الأنعام ،الآيات :151-152-153.

21- ينظر فؤاد دوارة، نجيب محفوظ من القومية إلى العالمية ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1989 ،ص.244-245.

22 ينظر غالي شكري، نجيب محفوظ في الواجهة ، مجلة الفكر والفن المعاصر، القاهرة،ع.157 ،ص.75.

[23] نجيب محفوظ ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص.325

[24]- نفسه ص.326

25أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص.325.

26نفسه.ص.328.

27نجيب محفوظ ، أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص.363.

28نفسه.ص.327.

29نفسه.ص.347.

30نفسه.ص.325.

31أولاد حارتنا، الأعمال الكاملة، ص.325.